التجديد
والأدب العربي

هبة سرت من جزيرة العرب فأثارت نجوم الشرق أدانيه وأقاصيه فصرت الرؤوس وأطلقت الألسن تلك هي لغة العرب ، وقد عصفت في عصورها المحدثة ريح صرصر عاتية من معاهي الغرب فهبت على هذه الشعلة تريد أن تطفئها ولكنَّ الله حافظها وإن انزوى بعض من ضعاعها في نفر خفت هامهم مصغوفين بالمدنية الغربية ، تلك الريح هي لغة الغرب وقد أحدثت أدباً ما عمّ أن هجم من باب المدنية فشغل مناطق الناس في عمالهم وتواديهم وبيوتهم وصحفهم وقد ركب أصحابه من رؤوس الناس يستميلونهم الى الأخذ بعقد هذا الأدب السفساف والاستضاءة بلمعانه ولكنه قطع الليل المظلم . غير أن شبابنا لا يجنحون إلاّ إلى ما تستسيغه المدنية الغربية وما يتسهل عليهم الأخذ به وهو في الحق لا يتصعب في درسهم ولا يقطع من زمن لهوهم ولا يجهد ذلك أدباؤنا الذين تقصوا كتب الأدب قديمه وحديثه وتكشفوا أسرار علومه فذقوه بعد جهد حتى كانوا أثبت في الدار من الجدار لا يتأودون مما استنفدوا فيه أعمارهم بحثاً وتنقيباً واستنهاجاً لنهج المتقدمين وإن تحقق للمحدثين الظفر والغلبة في هذه الأيام على أهل الأدب الحق القديم فكانوا أكثر عدداً وأشيع أدباً وأحظى إكباراً عند شبابنا المصري بقدر ما أوتي نصيباً من لغة العرب وله في ذلك شبه تعذر اذ قد ثبت في نفوس الشباب ذلك الميل الى التجديد وكلما قرب الانسان من المدنية ازداد حاجة الى التجديد وازداد ازدراءً بالقديم .

غير أن التجديد لا يتناول كل شيء فالدين مثلاً لا يقبل تجديداً ولغة القرآن لا تقبل تجديداً لا في أسلوبها ولا في ألفاظها الاّ ما زجّ فيها من ألفاظ غيرها ما ليس له مسمى فيها وتلك ضرورة ، فاللغة العربية لا تبقى حافظة كيانها وعظمتها إذا أقصينا لفظاً قديماً عن الاستعمال بدعوى أنه وحوشي فيلمى ثم لا يكون له أثر بعد ذلك فينفرط عقد اللغة ويذهب

بهاؤها بذهاب رونقها بألفاظها . ولا شك في قدم القرآن وعظمته لفظاً وأسلوباً ومعنىً: يتداعى إلى الانحلال أمام كل أولئك بناء الأدب الحديث . ولا ريب أنّ في القرآن حقّاً من ألفاظ قد لا يستبينها حقير العلم باللغة من رجال الأدب الحديث فيتوهمها متعاظلة متنافرة، والقرآن روح اللغة وجسمها فإذا تجشّم خيال التجديد في الأذهان ولعب الاغرام به في الأدمغة نائياً جانباً عن القرآن والحديث وكلام القدامى من فصحاء العرب بدعوى تسولها نفوس طلاب التجديد انها ليست من الفصيح ما دامت مشحونة بألفاظ تنفر عنها أفهام مراض الافهام فيعدونها سامحهم الله غريبة متعاظلة، وما دامت سياسة التعليم في بلادنا بعيدة عن أخذ النشء بالاضطلاع والتنقيب في المعاجم وأسفار الأدب القديم ثم هم لا يأخذونهم باستظهار طائفة من مرادفاتها في كل ناحية ينحوها الكاتب فيتمكن من تجويد كتابته ودفع الوصم والنقص عن لغته، وما دامت سياسة الصحفيين والقصصيين في كتاباتهم تحدوهم أن يكونوا بناحية عن أخذ القارئين بالأساليب المرتاثة عليهم، ما دام هؤلاء وأولئك يحبسون عن أقلامهم الألفاظ السوامي عن الأفهام الغضة لعلة أنها قديمة ووعرة عليهم كان المعلمين والصحفيين سوء الأثر في لغة القرآن والسنة .

ومن عجب الأيام أنّنا نرى فئة الأدب الحديث لا يأبهون لكتابة قديمة ولا لتأليف قديم في الأدب العربي وبخاصة المتبسطة في الوجوه والعلل النحوية والصرفية وهم يكرهون ذينك الفرعين للأدب في النحو والصرف إما لمجرد انصرافهم عن القديم وإمّا لأنهم لم يستبطنوا قواعدهما .

وقد أجمع قدامى ومحدثو رجال الأدب المحققون الا بعض من حبس بنانه للصحافة أو كتابة القصص وجنانه للتعليم أنّ للأدب أصولاً من الكتب القديمة يجب أن يحذقها الأديب وأكثرهم خصص منها الكامل لمحمد بن يزيد المبرد، وأدب الكاتب لابي محمد بن عبدالله ابن قتيبة، والبيان والتبيين لأبي عثمان عمر الجاحظ، والنوادر لأبي علي القالي البغدادي، وجعلوها أصول هذا الفن وأركانه وما سواهنّ تبع لها متفرع عنها وكلها مفرطة في قواعد النحو مشحونة بتصاريف الصرف مترعة بأبحاث لغوية يستدل منها في كثير من نقد أبيات لمختلف الشعراء في مختلف العصور لم يسلك فيها ناقدوها مسلكاً مأمون النقد والكمال لله وحده ،

وهؤلاء يرون أن أصول مباحثهم هذه ومخاضة النحو وهو عماد مشكل الكلام وتوثيق ربطه وقوام المعاني فلا يستقيم معنى لكاتب إلا بمعرفته وأن الآخذين بعقائد الكتابة ولا أخالهم ينكرون ما يعلمون أن النحو والصرف قد ذهبت بهما أهواء معلميهما في دور الصحافة والتعليم وجو التأليف القصصي ببلادنا مع حفظ ما يقف عنده العلم الصحيح يبرز من حذقهم معارفهم وتحررت أفلامهم فلهم في نفوسنا من الاعتراف بما أوتوا نصيباً موفوراً من فضل على الأدب والكاتبين وأولئكم أبعد من أن يروا ما يرى بعض الكتاب أنهما لا تستوجبهما الكتابة ولا تستدعيهما صناعة الأدب وحسب الكاتب من النحو والصرف القدر الطفيف المقرر في كتب الدراسات المدرسية على إن كثيراً من أبوابهما لا يحتاج إليه الكاتب وإننا نرى وليس ينكر أحد ما نرى أن بين الصحفيين وطلاب المدارس من يجنح في كتاباته الى سخف التركيب هروباً من تركيب يوضحه الاعراب وهم يعيبون عنه . ومما يقضي منه العجب أن من القوامين على التعاليم في مدارسنا من يرى أن هذه الكتب التي ذكرنا شيئاً جانباً وما نهج نهجها قبور من الأوراق لا يصح أن تعد من آلات الأدب العصري ولا تنفع من معارف الأدباء فيجب أن تهمل إهمالاً أو تمحق من الوجود محقاً ليكون النشء بمنجوة عن اضطراب عقله لأنها تكاد تطمس منه أدباً أخذه به معلموه وتذهب من خصائصه مقوماته التي روضوه عليها بما يلائم عصره وهذا قليل من كثير يلهج به معلمونا وصحفيونا . ولا أراني ملوماً إن قلت إن لغة العرب تذيع على هيا كل الصف برأي ومسمع من أولئك القوامين عليها وهم الذين كشف الله من بصيرتهم في دركها وتكشف أسرارها ولا يؤخذ عليّ ان قلت إن العصبية لهذه اللغة إذا ضاعت في رجالها ذهب بهاؤهم وتداعت عظمتهم ولا يداخلني شك في أن أدباءنا كالمنفلوطي والزيات والمازني والجارم وزكي مبارك ودريني خشبة وطه حسين وغير أولئك ممن برزوا في ميدانها عالة على الأمة وجناية على اللغة في بلد عربي إذ لا حاجة لأديبهم ما دامت اللغة في قبضة الموت وهم رجال لم يبلغوا ما بلغوا من سمو المقام إلا بما أوتوا نصيباً موفوراً من أسرارها وحلقوا في حوّ دقائقها من أصول وفروع ، فذلك لا يسأل في أمتنا غير أدبائنا وعلمائنا في الذمة أمام الله عن لغة كتابه وأمام الأمة عن لغة قوميتها وتلقاء الضمير عما قلدتهم الأمة زعامتها ، تلك الأمانة التي يجب أن يؤدوها بالمحافظة عليها من أيدي العابثين المغرورين الذين يعملون جهدهم اليوم لاستبدال غيرها بها فاللغة قوام معلومات أمتهم وداعية ثقافتها وسر عظمتها وربما كانت أصل بقائها في هذا الوجود .

وإلى هنا أستوقف القلم .

محمد توفيق عز